﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

طلبُهم العذابَ انتقالٌ إلى مرحلةِ الإفلاسِ في القدرةِ على تحقيقِ ما وعدوا به

لمّا قالوا في الآيةِ السّابقةِ استهزاءً بالآياتِ الَّتي تُليت عليهم: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وإيهامًا للنّاس بأنَّهم ترفَّعوا عن معارضةِ القرآنِ، انتقلوا في هذه الآيةِ إلى مرحلةٍ أبلغَ في الجحودِ والإيهامِ من القولِ الأوَّلِ، وهو طلبُهم العذابُ تعليقًا على كونِ القرآنِ حقًّا، وأنَّهم على القطعِ من أنَّ ما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ باطلٌ، فقالوا: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: نداءٌ، والمرادُ بهِ - يا الله - فحُذِفَ حرفُ النِّداءِ، وعوِّضَ الميمُ في آخرِه، وقيل: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ بمعنى: يا مَن هو إلهي، وقال فريقٌ من العلماءِ: إنَّ الاسمَ الجليل (الله) ليس من الأسماءِ الَّتي يجوزُ اشتقاقُ فعلٍ منها، وقال فريقٌ آخرُ: إنَّ أصلَهُ: (الإلاهُ) وحُذِفَتِ الهمزةُ، وأُدْغِمَتِ اللّامُ في اللّامِ، والإلهُ: المعبودُ[1].

2) ﴿فَأَمْطِرْ﴾: الميمُ والطّاءُ والرّاءُ: أصلٌ صحيحٌ فيهِ معنيان: أحدُهما: الغيثُ النّازلُ من السَّماءِ، والآخرُ جنسٌ من العدوِّ، والَّذي جاءَ مِنَ التَّركيبِ في القرآنِ هو المعنى الأوَّلُ، أي: الماءُ المنسكِبُ من السَّحابِ، وقيل: إنَّ (مطر) يقالُ في الخيرِ، و(أمطر) في العذابِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أله).

وجعل العذابَ تشبيهًا بالمطرِ في التَّصوُّب من أعلى، ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74][1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكرُ اللّهُ لنبيِّه ﷺ وللمؤمنينَ صورةً أخرى من عنادِ الكافرينَ، وهي قصدُهم التَّخييلَ إلى النّاس أنَّهم على القطعِ من أنَّ ما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ باطلٌ، وإلّا لما دعوا بدعاءٍ جارٍ مجرى القسم، أي: يقسمونَ بطريقةِ الدُّعاءِ على أنفسِهم، فتوجَّهوا فيه لمن لهُ تمامُ المُلكِ وعمومُهُ، متهكِّمين برسولِ اللّهِ، قائلينَ: اللهمَّ إن كان هذا الأمرُ هو الحقُّ من عندِك، لا شكَّ فيهِ ولا مريةَ، فعاقبنا على الكفرِ به، بحجارةٍ مخلوقةٍ من السَّماءِ لمن تصيبهُ، كثيرةٍ مثلِ المطرِ، كما عاقبت أصحابَ الفيلَ، ومرادُهم إنكارُ كونِه حقًّا منزَّلًا من عندِ اللّهِ، كأنَّهم قالوا: إن كانَ الباطلُ حقًّا فائتنا بعذابٍ أليمٍ، فعلَّقوا نزولَ العذابِ على محالٍ في ظنِّهم، وحسبوا فيه معذرةً لهم عن العجزِ الذي تلبَّسوا بهِ في معارضةِ القرآنِ.

غايةُ المكابرةِ وتمامُ المفاخرةِ في أن طلبوا العذابَ لأنفسِهم!

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تعيينُ المعطوفِ عليهِ:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ﴾ عاطفةٌ، ويحتمل أن يكون المعطوفُ عليه ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 30]، ويحتملُ أن يكونَ ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ [الأنفال: 31][2].

براعةُ المناسبةِ:

بين المفردتينِ رابطٌ بديعٌ، كاشفٌ عن حقيقتِهم الَّتي يستطيعونَها، ففي الأولى ادَّعَوا قدرتَهم على القولِ، ولكنَّهم امتنعوا عنه ترفُّعًا،

قولُهم الثّاني أبطلَ قولَهم الأوَّلَ، وأظهرَ غايةَ عجزِهم وحمقِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مطر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/331.

فلو كان ادِّعاؤُهم صحيحًا؛ لاكتفوا بالقولِ الأوَّلِ (لقلنا) الَّذي جاءَ جوابَ شرطٍ، ومعنا كما سبقَ (لو نشاءُ أن نقولَ؛ نقولُ، ولو شئنا القولَ في الماضي؛ لقلنا فيه)، أي: ادَّعوا القدرةَ على قولِ مثلِهِ في الماضي وفي المستقبلِ.

ولكنَّهم لمّا قالوا القولَ الثّاني، وأتوا به دعاءً على أنفسِهم وقومِهم بإمطارِ الحجارةِ والعذاب الأليم، أي: بهلاكِ الاستئصالِ، فكشفَ هذا الطلبُ عن غايةِ عجزِهم وعنادِهم وحمقِهم؛ لأنَّهم أبطلوا قولَهم الأوَّلَ، وعلَّقوا الإقرارَ بصدقِ القرآنِ بإنزالِ العذابِ عليهم، ولو امتلكوا القدرةَ؛ لأتوا بما زعموا، ولما لجؤوا للدُّعاءِ على أنفسِهم.

وهذا يدلُّ على الاستسلامِ النَّفسيِّ والعجزِ الدّاخليِّ الَّذي كان في داخلِهم، والذي أرادوا أن يستروهُ بأقوالهم، ففضحتْهُم أقوالُهم.

سرُّ التَّعبيرِ عن المفردِ بالجمعِ:

الكافرونَ فريقٌ واحدٌ اتَّفق على إنكارِ الحقِّ بكلمةِ رجلٍ واحدٍ

وردَ أنَّ القائلَ هو الحارثُ بنُ النضرِ بنِ الحارثِ، فيكونُ القرآنُ قد عبَّرَ عن المفردِ بالجمعِ؛ وذلك لأنَّ النَّضرَ كان في قومِهِ موسومًا بالنُّبلِ والفهمِ، مسكونًا إلى قولِه، فكانَ إذا قالَ قولًا؛ تبعَه عليهِ كثيرٌ، واتَّبعوهُ عليهِ حسبما يفعلُهُ النّاسُ أبدًا بعلمائِهم وفقهائِهم[1]، أو هو قولُ الذين ائتمروا في شأنِه[2]، وعلى كلا القولين، فهناك إشارةٌ إلى اتِّفاقِهم على الباطلِ، وأنَّهم كانوا يؤيِّدونَهُ، ويحكونَهُ، ويحاكونَهُ، فإن كانَ الَّذي ابتكرَهُ هو النَّضرُ بنُ الحارثِ، فليس يمتنعُ أن تصدرَ أمثالُ هذا القولِ من أمثالِهِ وأتباعِهِ[3].

بلاغةُ ألفاظِ الدُّعاءِ:

عبَّرَ القرآنُ بـ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، وهو دعاءٌ على لسانِ غيرِ المؤمنين، ولم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/520.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/326.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.

المتكبِّرونَ المعاندونَ يُلمس استهزاؤهم حتَّى في دعائِهم

يردُ في القرآنِ الدُّعاءُ به إلّا وهو مقترنٌ باسمٍ آخرَ من أسماءِ اللّهِ عدا هذهِ الآيةَ، فجاءَ في سياقِ استهزاءِ المشركينَ بكلامِ الرَّسولِ ﷺ ولم يكن في سياقِ العبوديَّةِ، بخلافِ المواضعِ الأخرى، ومنها ما جاءَ في دُعاءِ عيسى [1] عليه السلام.

حُذِفَت أداةُ النِّداء؛ إذ أصلُ هذا الدُّعاءِ: يا اللّهُ، وذلك إيهامٌ بأنَّهُ سبحانه قريبٌ منهم، لا يحتاجونَ إلى ندائِه، وأنَّ الحقَّ معهم، وهذا زيادةٌ في السُّخريةِ والاستهزاءِ بالنَّبيِّ ﷺ.

سياقُ الآياتِ سياقُ قوَّةٍ وبطشٍ، قال بعدها سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وهذا التَّعبيرُ لم يردْ في القرآنِ إلّا في مواضعِ القوَّةِ والبطشِ.

الإشارةُ إلى اعترافِهم باللّهِ الَّذي يتوجَّهونَ إليهِ، وأنَّ للّهِ ﷻ عنديَّةً، وفيها حقٌّ، ورغم ذلك ينصرفونَ عن الامتثالِ لمنهجِه وعبادتِه، ممّا يدلُّ على أنَّهم نموذجٌ للصَّلف والمكابرة[2].

توجيهُ استعمالِ ﴿إن﴾ دونَ (إذا):

الكشفُ عن زَعْزَعةِ المشركين وتشكُّكهم بعدمِ وقوعِ العذابِ

عبَّرَ القرآنُ بحرفِ الشَّرط ﴿إن﴾ دونَ (إذا)؛ لأنَّ الأصلَ عدمُ قطعِ المتكلِّم بوقوعِ الشَّرطِ في المستقبلِ مع (إنْ)، بخلافِ (إذا) فتُستعملُ بحسبِ أصلِها في كلِّ ما يقطعُ المتكلِّمُ بوقوعِه في المستقبل، ومن أجلِ هذا لا تُستعمل إلّا في الأحوالِ الكثيرةِ الوقوعِ، واستعمالُ ﴿إن﴾ يناسبُ حالهم، فهم غيرُ جازمينَ بأنَّ القرآنَ حقٌّ ومنزَّلٌ من اللّهِ، بل هم موقنونَ بأنَّهُ غيرُ حقٍّ، وهذا يكشفُ زعزعةَ المشركين،

(1) ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: 114] فقد جاء لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ بعد ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ في دعاء عيسى عليه السلام، السامرائي، لمسات بيانية: 5/164.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3665.

ولذلك أتى بضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ الذي يقتضي تقوّي الخبر، أي: إن كان هذا حقًّا ومن عندك بلا شكٍّ[1].

نكتةُ تَكرارِ ﴿هَـٰذَا﴾ ثلاثَ مرّاتٍ في سياقٍ واحدٍ:

استمرارُ الاستخفافِ بالقرآنِ دليلُ عدمِ الصِّدقِ في طلبِ الحقِّ

أعادَ القرآنُ كلمةَ ﴿هَـٰذَا﴾ - وهي اسمُ الإشارةِ الَّذي يُستعمل للقريب - مرَّةً ثالثةً؛ إذْ سبقَ ذكرُها في الآيةِ السّابقةِ، لإفادةِ التَّأكيدِ، أي: أكَّد القرآنُ وجودَ استخفافِ الكافرين واستهزائِهم بالقرآنِ، واستمرارِهِ منهم، بما يدلُّ على عدمِ صدقِهم في دعائِهم.

دلالةُ اجتماعِ المؤكِّدات:

قولُ الحقِّ ينسلُّ من لسانِ أهلِ الباطلِ فيفضحُهم وهم غافلونَ

ضميرُ الفصلِ (هو) لا محلَّ لهُ من الإعرابِ، يفيدُ التَّأكيدَ على ثبوتِ اتِّصافِ المبتدأ، وهو القرآنُ بالخبرِ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ وتقويتِهِ وأحقيَّتِه بهِ، وتعريفُ المسندِ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بلامِ الجنسِ، كما يرى ابنُ عاشور يقتضي الحصرَ، أي: إنَّهُ الحقُّ الكامل في أعلى درجاتِه وأقصى غاياتِه، وبالتّالي اجتمعَ في التَّركيبِ تقوٍّ وحصرٌ، وذلك تعبيرُهم يحكونَ بهِ أقوالَ القرآنِ المنوَّهةَ بصدقِه، أي: وإن كفرت قلوبُهم إلّا أنَّ ألسنتَهم أبتْ إلّا أن تفضحَهم؛ إذ كان يكفيهم أن يقولوا: (إن كان هذا حقًّا)، ولكنَّهم اعترفوا بقوَّةِ حَقّيَّةِ القرآنِ من خلال ضميرِ الفصلِ، وبانحصارِ الحقيقةِ فيهِ من خلالِ تعريفِ المسندِ إليهِ[2].

وهناك من المفسِّرين من يرى أنَّ فائدةَ التَّأكيدِ بضميرِ الفصلِ وتعريفِ المُسندِ هو بيانُ تهكُّمِ المشركينَ بالنَّبيِّ ﷺ يقولونه من بابِ السُّخريةِ والاستهزاءِ، أي: إنَّ القرآنَ حُقَّ بالوجهِ الذي يدَّعيه النَّبيُّ ﷺ من أنَّهُ منزَّلٌ من عندِ اللهِ، لا الحقُّ مطلقًا[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/332.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/332.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/58، والآلوسي، روح المعاني: 5/187، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/284.

معنى التَّعريفِ في لفظِ: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

(أل) التَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ فيها رأيانِ[1]: أوّلهما أنّ (أل) عهديَّةٌ: والعهدُ فيها حضوريٌّ، ومعنى العهدِ في أنَّه الحقُّ الَّذي ادَّعاهُ النَّبيُّ ﷺ وهو أنَّه كلامُ اللّهِ تعالى المنزَّل على النّبيّ ﷺ على النَّمط المخصوصِ[2]، أي: إنَّ القولَ هو تهكُّمٌ من المشركين.

لامُ التَّعريفِ بين العهديَّةِ الَّتي تفيدُ التَّهكُّمَ، والجنسيَّةِ الَّتي تفضحُهم

وثانيهما: أنّ (أل) للجنس، وهي تقتضي الحصرَ، أي: إنَّهُ الحقُّ الكاملُ في أعلى درجاتِه وأقصى غاياتِه، وعلى هذا يكونُ هذ القولُ من المشركين ليس تهكُّمًا، وإنَّما اعترافٌ لم يقصدوهُ[3].

بلاغةُ تقديرِ المحذوفِ بالقيدِ:

قَيَّدتِ الآيةُ المحذوفَ، وهو الحالُ (منزَّلًا) بالقيدِ ﴿مِنۡ عِندِكَ﴾ والتَّقدير: منزَّلًا من عندك؛ للإشارة إلى أنَّهم يطعنونَ في كونه حقًّا، وفي كونه منزَّلًا من عندِ اللّهِ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ:

الاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ غرضُها تهكميٌّ

في الآيةِ استعارةٌ، حيثُ شبَّهتِ الآيةُ نزولَ العذابِ بنزولِ المطرِ، فطوى ذكرَ المُشَبَّهِ، وصرَّحَ بذكرِ المشبَّهِ بهِ، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ ليجيءَ المعنى في صورةٍ واضحةٍ قريبةٍ من الأذهان، وسهلةِ التَّحقُّق، كنزولِ المطرِ الذي لا يستبعدُهُ أحدٌ، وهذا إفراطٌ في معاندتِهم وتحدّيهم وسخريَّتِهم، وخداعِهم للبسطاءِ وادِّعائِهم بأنَّ العذابَ لن يقعَ، وكشفتِ الآيةُ عن تهكُّمِهم بقيلهم ذلك، ومدى تجاسرِهم في الدُّعاءِ، ورحمة اللّه بهم.

بلاغةُ فعلِ الأمرِ:

استُعملَت صيغةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَأَمۡطِرۡ﴾ و﴿ٱئۡتِنَا﴾ إشارةً إلى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/187.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 5/284.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/332.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

طلبُ العذابِ دونَ الهدايةِ أمارةُ العجزِ والاستكبارِ

غايةِ تهكُّمِهم وسخريَّتِهم بالنَّبيِّ ﷺ وتحدّيهم؛ إذ إنَّ فعلَ الأمرِ يدلُّ على التَّهكُّمِ إذا تضمَّن سخريَّةً، ويدلُّ على التَّعجيزِ إذا كان في سياق التَّحدّي، لبيانِ عجزِ المأمورِ، وكان المأمورُ بهِ مستحيلًا في زعمِهم، وفي هذا عنادٌ منهم، وإبهامٌ على النّاسِ أنَّهم على بصيرةٍ[1]، وإلّا فالعقلُ يستدعي أن يكونَ الطَّلبُ هو طلبُ الهدايةِ، ولكن عدلوا عنهُ إلى ما ذكروا لفرطِ استكبارِهم وحمقِهم.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

طلبُ تخصيصِهم بالعذابِ تحدٍّ واضحٌ واستكبارٌ فاضحٌ

قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيْنَا﴾ على المفعولِ ﴿حِجَارَةً﴾، وهو من تقديمِ أحدِ المُتعلِّقاتِ على بعضِ مخالَفةً للتَّرتيبِ الأصلي؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: سألوا أن يخصَّهم اللّهُ بهذه الحجارةِ دون غيرِهم، وذلك إشارةٌ إلى فرطِ تحدّيهم للنَّبيِّ ﷺ وفرطِ استكبارِهم واستهزائِهم واستخفافِهم بهِ، وإلى قصدِهم من إيهامِ النّاس أنَّهم على القطعِ من أنَّ ما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ باطلٌ، وإلّا لما دعوا بدعاءٍ خصّوا فيه أنفسَهم دونَ غيرِهم.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

الإشارةُ إلى عذابِ أبرهةَ لبيانِ ثقتِهم بتكذيبِهم الوحيَ وللتَّلبيس على النّاس

أفردَ الكفّارُ طلبَ إمطارِ الحجارةِ من بينِ أفرادِ العذابِ الأليمِ بالذِّكرِ، لكونِ الرَّضْخِ بالحجارةِ ممّا يجتمعُ فيهِ عذابُ الجسمِ بما فيهِ من تألُّمِ البدنِ، وعذابُ الرّوحِ بما فيهِ من الذِّلَّةِ والإهانةِ، وهذا فيه إشارةٌ إلى زيادةِ تهكُّمِهم واستكبارِهم، إضافةً إلى أنَّ فيهِ إيماءً إلى عذابٍ عهدوهُ قريبًا، وهو ما نزل بأبرهةَ من حجارةِ السِّجّيل، وكان له أثرٌ كبيرٌ على النّاس، حتَّى جعلوهُ تأريخًا لهم، وفي هذا زيادةُ تلبيسٍ على النّاس؛ إذ لا يشكُّ أحدٌ منهم أنَّ عذابَ الحجارةِ حينها جاءَ من عندِ اللّهِ ليبطلَ باطلَ أبرهةَ.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/398.

سرُّ ذكرِ القيدِ المعلومِ بداهةً:

تمثَّلَ سرُّ ذكرِ قيدِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ -والإمطارُ لا يكونُ إلّا منها- بأمورٍ:

التَّهكُّمُ بالتَّلميحِ إلى الوحي النّازلِ من السَّماءِ

الأوَّلُ: التَّهكُّمُ والسُّخريةُ برسولِ اللهِ ﷺ بأنَّهُ كما تدَّعي مجيءَ الوحي من السَّماءِ بأمرٍ خارقٍ، فنحنُ ننتظرُ إن كنتَ صادقًا بدلًا عنه عذابَ الحجارةِ، كالَّتي أتت أصحاب الفيلِ صونًا من اللهِ لبيتِه[1].

الثّاني: التَّأكيدُ، كما تقولُ: نظرتُ بعيني، والنَّظرُ لا يكونُ إلّا بالعينِ.

الثالث: إزالةُ وهمِ من يتوهَّم أنَّ الإمطارَ مجازٌ عن مطلقِ الرَّجمِ، وأنَّه إنَّما ذُكِرَ لبيانِ أنَّ الحجارةَ المرجومَ بها في الكثرةِ مثل المطرِ، أي: لإفادةِ أنَّ المرادَ طلبُ تنزُّلِ الحجارةِ من السَّماءِ على الحقيقةِ، وليس المرادُ حجارةً كثيرةً فقط.

الرّابع: الدِّلالةُ على كونِه بنحوِ الآيةِ السَّماويَّةِ والإهلاكِ الإلهي المحضِ، فإمطارُ الحجارةِ من السَّماءِ أحدُ أنواعِ العذابِ الَّذي نزلَ على بعضِ الأممِ.

بلاغةُ تقديرِ المحذوفِ بالقيدِ:

طلبُ الحجارةِ السَّماويَّةِ هو في حقيقتِه طلبُ معجزةٍ حسيَّةٍ

قُيِّدَتِ الحجارةُ بقيدِ الوصفِ، وهو ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للإشارةِ إلى تقديرِ محذوفٍ، أي: حجارةٍ مخلوقةٍ من السَّماءِ لعذابٍ من تصيبُهُ؛ لأنَّ الشَّأنَ أنَّ مطرَ السَّماءِ لا يكون بحجارة[2]، وهذا الطَّلبُ - وهو أن تكونَ حجارةً مخلوقةً من السَّماءِ مخصَّصةً بمن تصيبهُ - فيه من التَّهكُّمِ ما فيه، وطلبهُم هذا يدلُّ على أنَّهم يطلبونَ معجزةً حسيَّةً؛ لأنَّ الحجارةَ السَّماويَّةَ ستكونُ مختلفةً عن الحجارةِ الأرضيَّةِ.

دلالةُ حرفِ ﴿أَوِ﴾:

طلبُ تنويعِ العذابِ

دلَّ حرفُ العَطفِ ﴿أَوِ﴾ في الآيةِ على التَّنويع، أي: (ائْتِنا بعَذابٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/270.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

أليمٍ سوى الإمطارِ المذكورِ)، أي: بنوعٍ آخرَ من العذابِ أشدَّ من ذلك وأشقَّ منهُ علينا[1].

عطفُ العامِّ على الخاصِّ أرادوا به التَّعميمَ

ذكرَ كُفّارُ قريشٍ عذابًا خاصًّا، وهو مطرُ الحجارةِ، ثُمَّ عَمَّموا، فقالوا: ﴿أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، من عطفِ العامِّ على الخاصِّ، أي: (ائْتِنا بعَذابٍ أليمٍ يتضمَّنُ الإمطارَ المذكورَ)[2]، ودلالةُ هذا العطفِ أمرانِ:

الأوَّلُ: التَّعميمُ، أي: طلبُ كلِّ أفرادِ العذابِ الأليمِ من عذابِ الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يؤمنون بالآخرةِ[3]، وهذا إفراطٌ منهم في التَّحدّي.

الآخرُ: أفردَ الأوَّلَ، وهو عذابُ الحجارةِ بالذِّكرِ اهتمامًا بشأنِه؛ لأنَّهُ كانَ آيةً سماويَّةً خارقةً عهدَها النّاسُ ورأوها، وتتعلَّقُ بالبلدِ الحرامِ وببيتِ اللّهِ العتيقِ، ولذا خصّوها بالذِّكرِ تلبيسًا على النّاسِ وإيهامًا لهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ على باطلٍ، وهم على حقٍّ.

نكتةُ التَّفصيلِ في عذابِ الإمطارِ والإجمالِ في العذابِ الأليمِ:

طلبُ العذابِ تفصيلًا وإجمالًا يدلُّ على لجاجةِ لسانٍ، وبجاحةِ بيانٍ

فصَّلَ النَّظْمُ في عذابِ الإمطارِ: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، بقصدِ المبالغةِ في إظهارِ التَّحدّي والاستهزاءِ والتَّهكُّمِ والمعاندةِ، وهذه المبالغةُ الَّتي ظهرت من خلالِ المفرداتِ الَّتي احتوتها الآيةُ مادَّةً وصياغةً، ومن خلالِ النَّظمِ من التَّقديمِ والتَّأخيرِ والحذفِ، وغيرِ ذلك ممّا سبقَ ذكرُهُ.

بينما في قولِه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقد أجملَ؛ لما في التَّنكيرِ من معانٍ توضِّحُ كبرَهُم ومعاندتَهم تغني عن التَّفصيلِ؛ ذلك أنَّ التَّنكيرَ في ﴿بِعَذَابٍ﴾ و﴿أَلِيمٍ﴾ يفيدُ التَّفخيمَ، أي: عذابٌ أليمٌ، لا يُحَدُّ حَدُّهُ، ولا يُقدَرُ قدرُهُ، لا تعرفهُ، ولا تألفُهُ، فأنَّى لك أن تقفَ على كنهِه،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/479.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 2/484.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

وهو هولٌ لا تستطيعُ أن تدركَهُ، أي: طلبوا هذا العذابَ؛ لأنَّهم يرون بِكِبْرِهِم أنَّه لن يقعَ بهم.

فهم جمعوا بين ما يعرفونَهُ من أقربِ معهودٍ لهم، وهو إمطارُ أبرهةَ بالحجارةِ، ثم أرادوا الاستطالةَ في الطَّلبِ، فطلبوا عذابًا أليمًا على وجهِ الإجمالِ، للتَّخييرِ وبيانِ مدى ثقتِهم بأنَّهم على حقٍّ، وهذهِ الاستطالةُ في طلبِ العذابِ تدلُّ على لجاجةٍ، وبجاحةٍ، لا تُغني الفقيرَ المُتربَ، ولا تعافي المريضَ المبتر.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

تشبيهُ العذابِ بدابّةٍ تُساقُ لإنزالِ عذابِ الاستئصالِ

لم يقلِ القرآنُ: (عذِّبنا عذابًا أليمًا)، وإنَّما أتى بأسلوبِ الاستعارةِ؛ إذ شبَّهَ العذابَ بشيءٍ يُساقُ (دابة)، وحذفَ المشبَّهَ به، وهو الشَّيءُ المساقُ، وأبقى بعضَ لوازمِه، وهو الإتيانُ على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وهي استعارةٌ تخييليَّةٌ، إذ صوَّرتِ العذابَ بأنَّه يُساقُ إليهم سَوْقًا، وغرضُ ذلك إبرازُ الأثرِ النَّفسيِّ لهذا العذابِ، وهو الإذلالُ والإهانةُ بقصدِ التَّنفيرِ والاستياءِ منهُ، فيصفُ القرآنُ بهذه الاستعارةِ حالَ الكفّار، وهم يُظهرون للنّاس استعدادَهم لقبولِ هذا العذابِ المليءِ بالإهانةِ والإذلالِ مع ما يحملُه مِن ألمٍ جسديٍّ؛ لتيقُّنهم أنَّه لن يقعَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالألفاظِ المنتقاة:

العذابُ أشدُّ وقعًا من العقابِ والمشركونَ طلبوا الأفظعَ لفظاعةِ قلوبِهم

عبَّر النَّظمُ بمفردةِ ﴿بِعَذَابٍ﴾ دونَ (عقاب)؛ لاتِّساع دلالةِ (عذاب)؛ ولا يُشترَطُ أن يكون العقابُ شديدًا أو أليمًا أو مهينًا، فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباطِ العقوبةِ بالذَّنبِ، فإذا عَظُم الذَّنْبُ؛ عظُمت العقوبةُ، وإذا صَغُر؛ كان العقابُ على قدرِه، بخلاف العذابِ؛ فإنَّهُ يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الإيلامِ والإيجاعِ الشَّديدِ، حتَّى وإنْ لم يوصَفْ بالشَّديدِ أو الأليمِ ونحو ذلكَ.

وبالتّالي يكونُ في التَّعبيرِ بمفردةِ العذابِ إشارةٌ إلى عتوِّ

الكافرين، وكِبرهم، وتهكُّمِهم برسولِ اللّهِ ﷺ وزيادةِ خداع النّاس بألفاظِ دعائِهم؛ وكأنَّهم يقولونَ: (ائْتِنا بعذابٍ لا تنفكُّ الشِّدَّة عنهُ، وهو أليمٌ، سواءٌ أكنّا مذنبين أم غير مذنبين).

سرُّ اختيارِ وصْفِ العذابِ:

النَّظْمُ دقيقُ الوصفِ كاشفٌ عن مقاصدِ التَّعبيرِ عن خفايا النُّفوس

وَصَفَتِ الآيةُ العذابَ بالأليمِ دونَ أوصافٍ أخرى كالشَّديد مثلًا مراعاةً للحيثيَّة الَّتي تعلَّق بها الوصفُ، وهي حيثيَّةُ أثرِ العذابِ على نفسِ المعذَّبِ، وهو كونُهُ عذابًا أليمًا له؛ لأنَّ الألمَ يرتبط بالحسِّ والشُّعور، بخلافِ الوصفِ بالشَّديدِ؛ فإنَّه يتعلَّقُ بنفسِ العذابِ الصّادرِ من جهةِ التَّعذيب وصفته، ولمّا كان العذابُ بأصلِ مادَّته يتضمَّنُ الشِّدَّةَ والإيجاعَ؛ ناسبَ هنا أن يوصفَ بالأليم ليصوِّرَ مدى تعنُّتهم؛ إذ إنَّهم طَلبوا أن يكونَ العذابُ مع شدَّته أليمًا موجعًا لأنفسِهم، وفي ذلك زيادةٌ في إيهامِ النّاس بتحققِ يقينِهم بأنَّ المحلوفَ عليهِ بهذا الدُّعاء ليس منزَّلًا من عندِ اللّهِ، فلذلك عرَّضوا أنفسَهم لخطرٍ عظيمٍ على تقديرِ أن يكونَ القرآنُ حقًّا منزَّلًا من عندِ اللّهِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المطرُ والغيثُ:

غالبُ استعمالِ القرآنِ للغيثِ في النَّفعِ، والمطرِ في مواضعِ الشِّدَّةِ

اللُّغةُ تسوّي في الاستعمال بين الغيثِ والمطرِ، فقد عُرِّفَ المطرُ بأنَّهُ: الغيثُ النّازلُ من السَّماءِ، وعُرِّفَ الغيثُ بأنَّه: المطرُ[1]، فالغيثُ والمطرُ: يشتركانِ فيما يسقطُ من السَّماءِ.

إلا أنَّ كلًّا منهما يتميَّز بملمحٍ دلاليٍّ في أصلِ مادَّته، فالمطرُ: هو الماءُ المنسكبُ بشدَّةٍ وغزارةٍ من السَّماءِ، فيشعرُ بالقوَّةِ المهلكةِ، بينما الغيثُ: من الغوثِ، وفيه معنى الإنقاذِ والنُّصرةِ والفرجِ عند الشِّدَّة، وهذا يشعرُ بالرِّفق والرَّحمة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مطر)، وابن منظور، لسان العرب: (غوث)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غيث).

كما أنَّ المتأمِّلَ للسّياقاتِ القرآنيَّةِ للكلمتين يلحظُ أنَّ القرآنَ الكريمَ استخدمَ المطرَ في سياق الانتقامِ والهلاكِ والعقابِ الإلهيِّ للطّاغين والمفسدين، وأيضًا في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: 102]، استخدمَ المطرَ؛ لأنَّه في موضعِ تأذّي المؤمنينَ بهِ في أرضِ المعركةِ.

بينما استخدمَ كلمةَ الغيثِ دائمًا في معنى: المطرِ النّافعِ المخصبِ للأرضِ والنَّبتِ[1].

(1) الراغب، المفردات، ص: 617، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 354.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»